سيّد درويش

١٨٩٢ – ١٩٢٣

لا يحتاج المرء لأن يكون خبيراً بالموسيقى وبشؤونها أو خبيراً بالغناء وبالطرب لكي يعلن إعتزازه بسيّد دوريش أحد الرواد الكبار للموسيقى العربية لحناً وغناءاً منذ مطالع القرن العشرين. يكفي أن يستمع المرء إلى أغانيه وإلى ألحانه، سواء بصوته هو أم بأصوات الذين يبدعون في تقليد صوته، أم الذين يستلهمون تراثه ويعيدون بناءه من خلال التوزيع الجديد للموسيقى وإضافة آلات جديدة إلى الآلات القديمة، يكفي ذلك مفتاحاً للدخول إلى عالم هذا الموسيقي والمغني العبقري الذي يحمل إسم سيّد درويش.

إلا أن هذا التميز الذي عرف به سيّد درويش وعرف به تراثه الموسيقي والغنائي لا يضعه في موقع أرقى ممن سبقوه إلى تلك الريادة، وبعضهم كان من أساتذته من أمثال عبده الحامولي وسلامة حجازي وآخرين من هؤلاء الكبار. هذا أمر لا جدال فيه. لكن اسم وتراث سيّد درويش قد إمتد في الزمن طويلاً ربما أكثر من بعض أولئك الكبار ممن سبقوه في الريادة. وظل برغم مرور الأعوام التسعين على وفاته، قوي الحضور إلى الحد الذي تكاد تتصوره شاخصاً أمامك وأنت تستمع إليه يغني بصوته، أو حين تستمتع إلى أغانيه مغناة بأصوات جديدة جميلة أخرى. وهو أمر يشير إلى أن هذا الفنان الكبير يتحدى الموت الذي جاءه مبكراً جداً ويتحدى المسافة الزمنية الطويلة التي كثيراً ما جعلت كباراً آخرين، بخلاف سيّد درويش، يدخلون مع الزمن في دائرة النسيان.

علاقتي بفن سيّد درويش الموسيقي والمغني هي علاقة قديمة في الزمن. إنها تعود إلى زمن الشباب. ومن غرائب الصدف أن تقودني إحدى زياراتي إلى مصر في عام ١٩٧٤ إلى اللقاء بإبن سيّد درويش في مدينة الاسكندرية محمد البحر. كنت في ذلك اللقاء مع زوجتي نجوى نزور الاسكندرية برفقة المحامي اليساري فوزي حمزة. ذهبت إلى ذلك اللقاء مع محمد البحر بشغف حاملاً معي الكثير من الأسئلة عن سيّد درويش منتظراً أجوبة من إبنه تشفي رغبة

جارفة عندي لمعرفة أكثر ما يمكن عن سيرة هذا الرائد الكبير في الموسيقى والطرب. كنت أريد أن أعرف من إبنه ما يتجاوز الأخبار والمدائح التي حفلت بها الكتب والكتابات وحفلت بها وسائل الاعلام التي تتغنى جميعها بمجد سيّد الموسيقى وسيّد الغناء العربي الأصيل.

كان اللقاء مع محمد البحر جميلاً وحميمياً. سمعت من الرجل عدداً من القصص والروايات البسيطة عن سيّد درويش الأب والمغني والملحن. وإستمعت إلى الابن يغني بعض ما لم يكن معروفاً ومعمماً من أغاني سيّد درويش. وكم أسفت لأنني لم أسجل تلك الأحاديث وتلك الأغاني خصوصاً، حتى وإن كانت قد جاءت بغير صوت صاحبها. كان يكفيني يومذاك أنني إلتقيت بإبن سيّد درويش. إلا أنني سمعت في ذلك اللقاء من محمد البحر شكوى مريرة من عدم الاهتمام باقتراحات كان قد تقدم بها إلى بعض الجهات الرسمية حول تراث والده.

لم يغب سيّد درويش قط عن إستماعي إلى أغانيه بصوته وبأصوات الآخرين. وتحتفظ مكتبتي الموسيقية بعدد من الأسطوانات المضغوطة التي تتضمّن عدداً من أغانيه الجميلة. وهي أغان تظل برغم مرور الزمن، كأنها بنت اللحظة الراهنة.

من طريف المصادفات أيضاً أنني إكتشفت، وأنا أكتب عن الممثل المسرحي نجيب الريحاني، أحد رواد المسرح الكوميدي في مصر منذ عشرينات وثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، عناصر الشبه بين الريحاني وسيّد درويش في النشأة الصعبة وفي المعاناة التي رافقتهما في حياتهما. كما إكتشفت علاقة الصداقة بينهما التي جعلتهما يلتقيان في عدة أعمال مسرحية مشتركة.

ولد سيّد درويش في عام ١٨٩٢ في كوم الدكة الحي الشعبي في مدينة الاسكندرية. كان والده يملك حانوتاً متواضعاً في سوق ذلك الحي الشعبي. وكانت الأسرة مؤلفة من الأب والأم وأربعة أولاد هم ثلاث بنات وصبي هو سيّد. وكانت الظروف السياسية صعبة. إذ كان الانكليز

قد إنتصروا على ثورة أحمد عرابي ونفوه وطردوا الجنود المصريين واحتلوا مواقعهم في المدينة في قلعة حي الدكة بالذات. وكان الجنود البريطانيون يمارسون القهر والعسف في المدينة ويعيثون فيها فساداً. وكانت المعارضة الوطنية تقوم بتظاهرات الاحتجاج ضدهم.

في تلك البيئة نشأ سيّد وعاش طفولته. وفي سن الخامسة أدخله والده كتاب الحي الذي كان يقع في مكان قريب من منزل العائلة. توفي والده وهو في السابعة من عمره. فخرج من الكتاب وانتقل إلى مدرسة في حي رأس التين عرفت بإسم "شمس المدارس". وكان من أهم ما ترك تأثيراً على مستقبله الفني في تلك المدرسة هو ما كان يتلقاه من أناشيد ومقطوعات غنائية كانت تعرف بالسلامات. في عام ١٩٠٥، وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، التحق سيّد بالمعهد الديني الذي كان قد أنشئ في الاسكندرية ليتابع في إحدى الفرق تجويد القرآن. كان عليه أن يتزيّا بزيّ قراء عصره المعممين. وكان يمارس التجويد في مسجد "أبو العباس". ثم إنتقل من فرقته الأولى إلى فرقة ثانية ليتابع التجويد في مسجد الشوربجي الذي كان يمارس فيه الآذان طيلة العام الدراسي. وسرعان ما إنجذب الفتى إلى العمل الفني في ميدان الغناء عندما إكتشف أن موهبته الفطرية التي ظهرت بالتجويد وبالآذان تقوده إلى ذلك. فترك الدراسة وانصرف إلى الفن. إلا أن بواكير موهبته الفنية برزت وترسخت بالأناشيد وبقراءة الموالد في الحفلات العامة وفي الأعراس. ولم يكن ذلك يرضي والدته ولا كان يرضي إدارة المدرسة. ففصل من المدرسة في نهاية العام الدراسي.

كان سيّد يحلم وهو يستمع إلى مشاهير القراء بأن يصبح واحداً منهم. غير أن الأمور جرت في غير ما كان يحب. لقد ضاقت سبل الحياة في وجهه وثقل عليه عبء المعيشة. وضاعف من ذلك العبء أنه كان قد تزوج قبل أن يتجاوز سن السادسة عشرة. إذ أصبح لزاماً عليه أن يفكر في شأن والدته وأخواته وزوجته. وظل يتلمس الوسائل لتأمين عيش كريم له

ولعائلته إلى أن التحق بفرقة كامل الأصلي. وهي كانت فرقة تهريج مرتجلة. إلا أن الفرقة انحلت قبل أن يفيد من وجوده فيها. فعاد أدراجه إلى الحيرة والبحث. وكان كثيراً ما يستمع إلى غناء الشيخ علي الحارث الذي كان يجمع بين ترتيل القرآن وإنشاد المدائح النبوية. فكان يحاول تقليده. كما كان يستمع إلى الشيخ سلامة حجازي ومنافسه الشيخ علي فياض وإلى غيرهما من أعلام الغناء في الاسكندرية. ولم يمض وقت حتى كان قد بدأ يجيد غناء القصائد والموشحات التي كان عبدو الحامولي ومحمد عثمان وابراهيم القباني أبرز ممثليها. لكن صعوبة الحياة إضطرته إلى العمل في أحد المقاهي الشعبية التي كان يرتادها السكارى. وكان لزاماً عليه في ذلك المقهى أن ينتقل من المدائح النبوية والمقطوعات الدينية إلى أغان وطقاطيق بالغة الرداءة. وكان عليه أن يكتفي بنصيبه من هبات السكارى. وحين لم يكن العمل في تلك المقاهي ليكفيه ضرورات العيش أغراه أحد أصدقائه بالعمل معه في ميدان البناء ومشتقاته. وكان سيّد قوي الارادة لا يستنكف عن العمل أيا كان نوعه لتأمين حاجته الملحة لكسب قوته وقوت أسرته. فقبل العرض. وأخذ يزاول مهنته الجديدة كعامل يعنى بطلي جدران المنازل. وكان يسمع زملاءه عمال البناء بعض الأغاني والأهازيج في أوقات الراحة. وتشاء الصدف أن يسمع الممثل أمين عطاالله من مقهى مجاور للبناء سيّد درويش وهو يغني. فأعجب بغنائه وقرّر، بالإتفاق مع أخيه سليم عطاالله مدير فرقة التمثيل والغناء، ضمّ الشاب سيّد إلى الفرقة. واصطحبه مع الفرقة إلى بلاد الشام في عام ١٩٠٩. في تلك الأثناء، وهو في مرحلته الشامية، رزق سيّد بإبنه محمد البحر. لكن تلك الرحلة كانت فاشلة. ولم تستغرق إقامته في بلاد الشام إلا عشرة أشهر إضطر بعدها للعودة إلى الإسكندرية طالباً من أسرته إمداده بنفقات العودة. لكن تلك الرحلة، برغم ما أصابه فيها من فشل وخسارة، أتاحت له فرصة التعرف إلى الشيخ عثمان الموصللي الذي كان

قد أخذ عنه وعن غيره في تلك الرحلة وفي الرحلة التالية التي قام بها إلى بلاد الشام الكثير من أصول فن الغناء.

عاد سيّد من رحلته البائسة تلك ليستأنف حياته متنقلاً من مقهى إلى آخر. وانتهى به المطاف إلى الغناء في أحد البارات. ثم إنتقل بعد ذلك إلى العمل كاتباً في محل لتجارة الأثاث. بعد أربعة أشهر في عمله الجديد عادت الصدف فأسعفته للقيام برحلته التالية إلى بلاد الشام. كان ذلك في عام ١٩١٢. كانت الرحلة الثانية أقل بؤساً. عاد بعدها سيّد إلى الاسكندرية ليقيم فيها طوال سني الحرب العالمية الأولى. في نهاية تلك الحرب إنتقل سيّد من الاسكندرية إلى القاهرة. وتعتبر مرحلة الاسكندرية تلك في حياة سيّد درويش مرحلة التحصيل الحقيقي والانتاج القائم على دراسة علمية فنية سليمة. كما تعتبر مرحلة الانتاج لغالبية أغانيه وألحانه. أما المرحلة الثالثة من حياته فتبدأ من لحظة إنتقاله من الاسكندرية إلى القاهرة وإقامته فيها منذ عام ١٩١٧ إلى نهاية حياته. وهي مرحلة القمة في بناء مجده الفني.

كانت وسيلة سيّد درويش الأولى لكسب العيش في القاهرة إقامة حفلات الغناء في المقاهي الكبيرة ذات المستوى الراقي هذه المرة. جاء ذلك بعد أن عمل على إستكمال "تخته" الموسيقي الخاص به وعلى ضمّ مجموعة من ذوي الخبرة إليه. وقد أكمل إجادة العزف على العود أثناء غنائه في "التخت". وبدأ يقدم الألحان من إنتاجه ويقوم بأدائها حيناً، أو يوكل ذلك إلى أحد المطربين المعروفين. وكانت موهبته الفنية تتعدى التلحين الموسيقي إلى تأليف الزجل والشعر. إلا أنه كان يهتم بالأناشيد الوطنية بخلاف ما كان سائداً في زمانه من الأناشيد التي كانت تمجد الحكام ومن يلوذ بهم. من تلك الأناشيد المعروفة نشيد "بلادي" الوطني الذي إستوحاه سيّد من إحدى خطب مصطفى كامل. كما كانت له أغان في الهجاء والسخرية ممن كان يطيب له أن ينال منهم. وكان من بين تلك الأغاني واحدة ألفها لغانية من غانيات الاسكندرية إسمها جليلة.

وكان قد تعرف إليها وجن بها هياماً. ولحن لها دوره الخالد "ياللي قوامك يعجبني". ولما هجرته جليلة مع غريم له ضاق بتصرفها وقام بإعداد الأغنية الهجائية التي ذاعت وانتشرت. فجاءته جليلة باكية معتذرة.

كان سيّد درويش يتطور مع العمر ومع التجربة التي خاضها في الخلق الفني وفي المعاناة. وكان من أبرز ما رافق تطوره ذاك أنه اعتبر أن الطرب بذاته لا يشكل هدفه الفني. إذ هو رأى أن عليه أن يربط في فنه بين الموسيقى وبين ما يقصد هو إليه من معان. وصادف أن سمع الممثل المعروف جورج أبيض لدى إنتقاله بفرقته التمثيلية إلى الاسكندرية في عام ١٩١٧ أغنية "زوروني كل سنة مرة" يؤديها سيّد بصوته في أحد المقاهي. وبلغ من فرط إعجاب أبيض بتلك الأغنية أن طلب إلى الفنان تلقينها لحامد مرسي ليؤديها في حفلات فرقته التي كانت تقدم تمثيلية "لويس الحادي عشر". لكن ما أن بلغ نجاح الأغنية في تلك الليلة ذروته حتى ضاق صدر جورج أبيض بسيّد وبصوته. إذ أحس بالفن الموسيقي يغزو فنه الدرامي. فأخذ يغري سيّد درويش بشتى الوسائل بالرحيل إلى القاهرة للعمل فيها معه. وكان يغريه بالقول بأن مجال الموسيقى في القاهرة هو أرحب وأجدى منه في الاسكندرية. ووعده بأن يعهد إليه فيها بتلحين مسرحياته الغنائية.

كان إنتقال سيّد إلى القاهرة في البداية إستمراراً لحياته البائسة. إلا أنه سرعان ما إلتقى فيها بسلامة حجازي الذي كان يعتبره مثله الأعلى. وكان ذلك قبيل رحيل هذا الأخير. وكان حجازي قد إستمع إلى بعض أغاني سيّد في الاسكندرية وأعجب بها. فشجعه على المضي في طريقه التجديدي في فن الموسيقى والغناء. إلا أن حجازي ما أن علم بالوضع المأساوي لسيّد في معيشته حتى سارع إلى مد يد العون له وأشركه في الانشاد معه في مسرحيته "غانية الأندلس". لكن سيّد سقط في الامتحان. إذ إستقبله الجمهور بكثير من الفتور بالنظر لوجوده إلى جانب

حجازي الذي كان سيّد الغناء والطرب في ذلك التاريخ. ولم يمض وقت حتى بدأ الناس يتعرفون إلى صوت سيّد ويعجبون به. وهكذا بدأ ينتقل في القاهرة بالذات بعد معاناته الأولى الصعبة إلى ذرى المجد. وصارت الفرق تتسابق لطلب الاتفاق مع سيّد على العمل معها. وانضمّ من جديد إلى فرقة جورج أبيض، ثم إلى فرقة نجيب الريحاني، ثم إلى فرقة علي الكسار. لكن سيّد درويش الذي صار واحداً من كبار المغنين والملحنين، وريث سلامة حجازي وعبده الحامولي وآخرين، كان يتطور في فنه شكلاً ومعنى وأداءاً. وكان أهم ما تميز به فنه في تطوره المتصاعد هو أنه كان صادقاً في التعبير عن مشاعر وهواجس وتقاليد شعبه.

مات سيّد درويش في عام ١٩٢٣. ولم تحتفل بموكب تشييعه لا الدولة ولا الشعب ولا الصحافة. وظل منسيّ الذكرى ردحاً غير قليل من الزمن. ولعل الكاتب الكبير عباس محمود العقاد خير من صوّر محنة ذلك الجحود الوطني وعدم تقدير الفن والفنانين. فقد نشر في جريدة "البلاغ" بتاريخ ٢٩ أيلول من عام ١٩٢٥ مقالاً تحت عنوان "سيّد درويش" يقول فيه: "في مثل هذا الشهر منذ عامين مات السيّد دوريش. وإذا قلت السيّد درويش فقد قلت إمام الملحنين ونابغة الموسيقى المفرد في هذا الزمان. مات والقطر كله يصغى إلى صوته... وسمع نعيه من سمعوا صوته... فما خطر لهم، إلا القليلين منهم، أنهم يسمعون نبأ خسارة خطيرة، وأن هذه الأمة فجعت في رجل من أفذاذ رجالها المعدودين... لكن الأمة الكاملة مع هذا عجزت عن قضاء حق الفرد... ولم تبالي حكومتها أن تشترك في تشييع جنازته، وإحياء ذكراه، كما تبالي بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ما ولدوا...".

غير أن مجد سيّد درويش سرعان ما عاد إلى البروز من جديد بعد وفاته بفترة من الزمن. ولعل أول حفل أقيم على مستوى فني عال يحمل الصيغة الرسمية والشعبية هو ذلك الحفل الكبير الذي أقيم لتخليد ذكرى سيّد درويش في عام ١٩٣١ في مسرح حديقة الأزبكية. وقد إشترك في

إحيائه موكب ضمّ أصدقاءه وزملاءه وعارفي فضله أمثال نجيب الريحاني وعلي الكسار وزكي عكاشة وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب وفتحية أحمد وحياة صبري وبديع خيري وأحمد شوقي. وإستمرت الذكرى تتجدد عاماً بعد عام إلى أن جاء إفتتاح الراديو في مصر فأصبح هذا الجهاز بما كان يردده من ألحان سيّد درويش بمثابة ذكرى متجددة على مدى الأعوام لهذا العبقري. ثم توالت مبادرات التكريم. فتأسست في القاهرة في عام ١٩٤٧ جمعية أطلق عليها إسم جمعية "أصدقاء موسيقى سيّد درويش"، ضمّت عدداً من كبار الشخصيات من فنانين وأدباء وهواة للفنون. وأصدرت وزارة الشؤون الاجتماعية طابعاً تذكارياً بإسمه لمساعدة تلك الجمعية على تحقيق أغراضها وتخليد ذكرى سيّد درويش. وفي عام ١٩٥٨ أصدرت وزارة المواصلات طابع بريد يحمل صورة سيّد درويش. ثم أقامت الدولة للفنان لوحة تذكارية في ردهة دار الأوبرا في القاهرة ضمّت إسم سيّد درويش وعدداً آخر من كبار أعلام الفن في مصر. كما أقيم له تمثال نصفي في دار المعهد العالي للموسيقى العربية. وأطلق إسمه على أحد شوارع القاهرة. وهذا الشارع يتوسط شارعين أحدهما بإسم نجيب الريحاني والثاني بإسم زكريا أحمد.

لم يكن سيّد درويش حدثاً في تاريخ مصر مثل سائر الأحداث. لقد تحوّل إسمه بعد عدة أعوام من وفاته إلى حدث دائم يتكرر في حياة الشعب المصري ويتجاوز حدود بلده إلى سائر البلدان العربية كفنان كبير بكل المعاني يعيش في قلب وأحاسيس شعبه المصري وفي قلب وأحاسيس كل عربي أينما كان. وبهذا الفن الذي أبدعه صار سيّد درويش أسطورة مصر الموسيقية والغنائية وأسطورة الموسيقى والغناء العربيين، ورمزاً خالداً للدمج الطبيعي في حياة الفنان الأصيل بين حبه لفنه وحبه لوطنه.